الفصل الأول

الأدلة القديمة على الاتصالات الشرقية

هناك الكثير من الأدلة على التجارة الشرقية لاسيما حينما تستكمل المصادر اليونانية والرومانية بمختلف الكتابات التي قدمتها الحضارات القديمة الأخرى. على سبيل المثال، يصف الأدب التاميلي في بدايته الاتصال مع أجانب يدعون "اليافانس"، ويعتقد الكثيرون أنهم كانوا من رعايا الإمبراطورية الرومانية.[١٧] وقد وصلت إلينا سجلات تاريخية أيضاً من الصين القديمة، التي تسجل أنشطة شعب أجنبي من قوة عظمى في الغرب البعيد تسمى "دا تشين".[١٨] ويعتقد رواد علم الصينيات أن المقصود بـ"دا تشين" الإمبراطورية الرومانية.[١٩]

بالإضافة إلى هذه المصادر المكتوبة، هناك مجموعة متزايدة من الأدلة الأثرية المكتشفة جراء التنقيبات الأثرية. وتشمل هذه النقوش الآثار القديمة، والنصوص المحفورة على قطع الفخار المعروفة باسم أوستراكا، ووثائق البردي من العصور الرومانية التي وجدت في البيئة المصرية القاحلة ملاذاً آمناً من عوامل التلف والضياع. وكانت المواقع القديمة المرتبطة بالتجارة الشرقية سواء داخل، أو خارج الحدود الرومانية خاضعة لتحقيقات حديثة، وقدمت المزيد من الأدلة المادية المهمة لسير التجارة الشرقية وأهميتها.

دليل الطواف حول البحر الأرتيري

تقدم الكتابات الكلاسيكية الدليل الأشمل والأكثر مصداقية لتجارة روما مع الشرق، ومن بين هذه النصوص القديمة ما زال كُتَيِّبٌ صغيرٌ يُشار إليه بأنه *دليل الطواف حول البحر الارتيري (Periplus of the Erythraean Sea)* يحتفظ بمكانة مهمة وفريدة من نوعها.

وهذا الدليل هو كُتَيِّبٌ تم توجيهه للتجار، ويتكون من ٦٦ فقرة موجزة، حيث كُتِبَ هذا الكُتَيِّبُ بأسلوبٍ بسيطٍ ومباشر باللغة اليونانية، وهو أحد الأساليب الكتابية التي كانت مشهورةً في العصر الروماني.[٢٠] وفي هذه الوثيقة المهمة يقدم المؤلف، الذي لم يذكر اسمه، معلومات عملية عن رحلات التجارة من مصر الرومانية إلى موانئ شرق أفريقيا، وجنوب شبه الجزيرة العربية، والسواحل الغربية للهند. وهذا الكتاب المنهجي المصور للاتصال التجاري يجعل هذا الدليل هو الأكثر تفصيلاً وشمولاً بين المصادر القديمة التي وصلت إلينا للمشاركة الرومانية في التجارة الشرقية.[٢١]

ولعل إحدى المميزات الفريدة لكتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" هو أنه كُتِبَ من قبل شخصٍ ما، لديه خبرة مباشرة من الشرق البعيد، وتشير القرائن النصية إلى أن مؤلف هذا العمل كان رجل أعمال من مصر يتحدث باليونانية، ويبدو أنه قد زار الهند في بعثات تجارية سابقة.[٢٢] وربما كان المؤلفُ مصدرَ ثقةٍ، وقد كتبَ التقريرَ لإطلاعِ المعاصرين له على حالة التجارة الشرقية، وعلى الأرجح فإنَّ هذا الكتاب كان مُوجَّهاً لصالح المضاربين، الذين يريدون الاستثمار في التجارة، أو ربما للتجار الأقل خبرةً، الذين يدرسون إمكانية القيام بالرحلة بأنفسهم.[٢٣] ويعدُّ كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" أيضاً عملاً جديراً بالأخذ في الحسبان، لأنه أحد المصادر الكلاسيكية القليلة التي وصلت إلينا من العالم القديم، وتمت كتابته من قبل

تاجر. وقد كتبت معظم الكتابات التاريخية الشائعة من العصر الروماني من قبل أفراد النخبة الاجتماعية المثقفة، الذين يميلون إلى إجلال الأعمال التجارية للطبقة الأرستقراطية الخاصة بحيازة الأراضي، ويعتبرون التجار الأقل شأناً من الناحية الاجتماعية. وهذا يجعل الشهادة الواقعية لمؤلف كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" أكثر أهميةً ومصداقيةً، وذلك بوصفها مصدراً من مصادر العمليات والممارسات التجارية القديمة.

جمع مؤلف هذا الكتاب تفاصيل من الرحلات التجارية المختلفة، وجمَّع هذه المعلومات في أدلةِ تَجَوُّلٍ طويلةٍ، تُفهرِس الفرص التجارية على طول السواحل الشرقية. وقبل كل شيء، كان اهتمام المؤلف موجهاً نحو العناصر التي يمكن تبادلها في الموانئ المختلفة، وذلك بسرد السلع المصدَّرة من خلال التجارة، والسلع الرومانية التي يمكن الحصول عليها في المقابل. وفي بعض الأحيان قدَّم المؤلف أيضاً تفاصيل عن كميات بعض السلع المتداولة، وقدَّم معلومات عن الأصول الحقيقية للمنتجات، عندما كان تجار تصدير البضائع ليسوا سوى وسطاء في تجارة أوسع.

ويحتوي كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" أيضاً على بعض عناصر التجارة البحرية، والمساعدات الملاحية اللازمة، مع تقديم المؤلف لمعلومات مهمة عن طرق الإبحار، والأخطار البحرية المحتملة، والمعالم، والمراسي الآمنة، واللوازم المفيدة.[٢٤] وتنتظم هذه التفاصيل الإضافية لإعطاء تعليقات معاصرة عن التجار القديمة، وتكشف عن مخاوف التجار والكثير من المخاطر التي يواجهونها بشكل روتيني في هذه الرحلات التجارية الطموحة.

ويصف هذا الكتاب شخوصاً وأحداثاً تجعلنا نؤرخ هذا العمل إلى حوالي عام ٥٠ ميلادية. ويمكن رؤية ذلك من خلال العديد من النقاط. أولاً، يذكر المؤلف أنَّ

ملكاً عربياً اسمه ماليكوس كان يحكم مملكة الأنباط، وتكشف لنا بعض نقوش هذه المنطقة أن ماليكوس كان في السلطة ما بين عامي ٤٠ و ٧٠ ميلادية.[٢٥] ثانياً، وصف المؤلف شمال الهند قبل عام ٦٥ ميلادية، عندما كان الغزاة القادمون من آسيا الوسطى، ويدعون كوشان، لا يزالون مقتصرين على باكتريا، وكانت غاندارا يحكمها صغار ملوك الهند والفرثيين.[٢٦] والدليل الثالث هو الأكثر تعقيداً، حيث يصف هذا الكتاب عصراً كانت فيه منطقة غوجارات الهندية تحت سيطرة ملك سمَّاه المؤلف "مانبانوس"، ولكن النصوص الهندية تسميه "نهابانا".[٢٧] وعندما تمت كتابة هذا الكتاب، استولى نهابانا على أراضٍ تابعة لحقل ساتافاهانا، وضمها إلى جنوب مملكته، بما في ذلك دير بوذي مهم في ناسيك.[٢٨] وتشير نقوش من ناسيك إلى أن نهابانا سيطر على المنطقة لمدة تقل عن ١١ عاماً، وحدَّد العلماء تاريخاً آخر لنقشٍ سكيثي في الموقع يرجع لعام ٦٦ الميلادي.[٢٩] وهذا يشير إلى عدم بدء احتلال سكثيا (Saka) المذكور في كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" قبل عام ٥٤ ميلادية بكثير. ومن المثير للاهتمام، أن مؤلف هذا الكتاب لم يكن على علمٍ بالأحداث في أواخر عهد كلاوديوس (Claudius)، عندما اكتشف أحد الرومان المحررين طريق إبحارٍ جديدٍ إلى سريلانكا، وأحضر معلومات جديدة ومهمة حول الجزيرة.[٣٠] وهذا يشير إلى أن كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" كُتِبَ قبل وقتٍ قصيرٍ من عام ٥٤ الميلادي، عندما اعتلى نيرون العرش خلفاً لسلفه لكلاوديوس.

إنَّ كتابَ "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" هو الدليل التجاري الوحيد الذي بقيَ من العصور القديمة، ولكن في وقتٍ من الأوقات كان هناك على الأرجح العشرات من هذه الكتابات المتداولة في أوساط رجال الأعمال الإغريق والرومان في الإسكندرية. ومن المرجح أن هذه التقارير كانت تُحدَّثُ وتُعدَّلُ بانتظامٍ عندما تتوافرُ

معلومات جديدة، وتَتَحَقَّقُ المزيد من الفرص التجارية. وقد كُتِبَتْ هذه الأدلة من قبل جهات موثوق بها، وتم نقلها لتحديد جهات الاتصال في مجتمع الأعمال. وكانت التجارة مع الشرق محيِّرة في تعقيدها، حيث كان رجال الأعمال الرومان في حاجةٍ إلى شكلٍ من أشكال المرجعيات لتخطيط جهات السوق المحتملة، وعلى الأرجح الاستجابة للمطالب الأجنبية. كان من الواجب أن تتم بعض القرارات التجارية خلال الرحلة، حيث كان التجار الرومان يحصلون على البضائع الشرقية في الموانئ الأجنبية؛ لتبادلها في أسواق أكثر بُعداً. ومن هنا كان الدليل التجاري المحدث لا يُقدَّر بثمن، حيث إن التجار الرومان في حاجةٍ إلى معرفة السلع العربية المطلوبة في الموانئ الهندية والبضائع الأجنبية الأخرى في أسواق خاصة. وتتطلب هذه النظم التجارية بلورةَ نوعٍ من الدليل المفصَّل يمكن العثور عليه في صفحات كتاب "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*.

يقدم كتابُ "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" رؤيةً تاريخيةً اقتصاديةً حول التجارة لم يسبق لها مثيل، حيث لا يُقدِّمُ هذا النوعَ من التفاصيل نصٌ رومانيٌّ آخر من النصوص التي وصلت إلينا حول التجارة والإستراتيجيات الممكنة وراء التعاملات التجارية المختلفة، فلو لم يصل إلينا هذا الكتاب؛ لأصبحت عملية دراسة التجارة الشرقية مقتصرةً فقط على بضع إشارات غامضة ومتباينة في المصادر المتبقية. إنَّ كتابَ "*دليل الطواف حول البحر الأرتيري*" لا يقدِّم فقط سِياقاً لجميع مصادر الكتابات الأخرى، لكنه يُفسِّرُ أيضاً الاكتشافات الأثرية، التي من شأنها أن تبقى غامضةً لولا وجوده. إنه وبحقٍّ عملٌ فريدٌ من نوعه، ويحتل موقعاً مهماً تقريباً في جميع الدراسات الحديثة للتجارة الشرقية، بما في ذلك الدراسات الخاصة بي.[٣١]

الجغرافيا لسترابون

حوالي عام ٢٣م، أكمل رجل يوناني يُدعَى سترابون دراسةً جغرافيةً عن العالَم المعروف آنذاك. وكان سترابون شخصاً يسعى للقبول الاجتماعي في المجتمع الروماني، وتوضِّح بعض المقاطع من أعماله موافقته الضمنية وقبوله للنظام الإمبراطوري.[٣٢] كان سترابون في المقام الأول مؤرخاً، وعلى الرغم من أن روايته عن تاريخ العالم لم يُكتب لها البقاء، عكسَ أسلوبُ الجغرافيا عنده اهتمامَه بالماضي.[٣٣] ويحتوي هذا العمل على معلوماتٍ مهمةٍ حول التجارة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والأراضي الواقعة وراء حدودها.

وُلِدَ سترابون في وقتٍ ما بين عامي ٦٤ و٥٠ قبل الميلاد، في مدينة أماسيا على الساحل الجنوبي للبحر الأسود.[٣٤] وكان ينحدر من عائلة أرستقراطية، وبحكم دراسته زار عدداً من المراكز الفكرية اليونانية في شرق البحر المتوسط.[٣٥] وأقام أيضاً في روما قبل قضائه سنواتٍ عدة في الإسكندرية في العشرينيات قبل الميلاد، حيث توطدت صداقته مع أيليوس جالوس. وكان جالوس واحداً من أوائل الحكام الرومان لمصر، وانضم سترابون لزمرةِ "الأصدقاء والجنود"، في جولةٍ حول المقاطعة الجديدة.[٣٦] عاد سترابون إلى روما بعد سنة ٢٠ قبل الميلاد بفترةٍ وجيزةٍ، واستمر في العيش في عاصمة الإمبراطورية، وربما حتى وفاته في عام ٢٣ ميلادية.[٣٧] وقد قام بتأليف الجغرافيا الخاصة به خلال هذه الفترة الأخيرة من حياته.[٣٨]

إنَّ كتاب *الجغرافيا* (*Geography*)، الذي كتبه سترابون، هو دراسة مهمة وشاملة، تجمع المعلومات الإثنوغرافية والسياسية حول الأراضي القديمة المعروفة للعلماء اليونان.[٣٩] وقد جمع سترابون عمله هذا من كتابات معروفة، كتبها مؤلفون

يونانيون ورومان، لكنه أضاف أيضاً في بعض الأحيان تفاصيل معاصرة عن التطورات الأخيرة والتي لم يشملها هؤلاء في كتاباتهم.

وتعد المعلومات التاريخية التي جمعها سترابون حول بلاد فارس وشبه الجزيرة العربية ذات قيمة كبيرة لفهم الأوضاع في هذه المناطق. ومع ذلك، اعتمد سترابون في رؤيته للهند اعتماداً كبيراً على مصادر يونانية تعود إلى عصر الإسكندر الأكبر وخلفائه المباشرين.[٤٠] ونتيجة لذلك، لم يقدم سترابون تقريباً أية معلومات عن الأحداث في الهند خلال فترته. وهذا أمر مهم، لأنه عندما كتب سترابون كتابه *(الجغرافيا)*، ربما كان هناك الآلاف من الرعايا الرومان يسافرون إلى الهند كل عام. وكان هؤلاء الناس على معرفةٍ دقيقةٍ ومعاصرةٍ بالشرق البعيد، وربما قابلهم سترابون وهو يسير في شوارع الإسكندرية المزدحمة. ومع ذلك ربما يكون سترابون قد اعتبر، مثل غيره من أعضاء النخبة الرومانية، أن التُّجار والبحَّارة أقل منهم في المنزلة الاجتماعية. واستبعد هذا التحيُّز الكتابات المعاصرة من هذا النوع من الدراسات الرسمية التي تفضلها الطبقات الأدبية. وفي الواقع ينصح سترابون قرَّاءه قائلاً:

> فيما يتعلق بهؤلاء التُّجار الذين يبحرون الآن من مصر حتى نهر الجانج، هم مجرد مواطنين منعزلين وليس لهم فائدة فيما يتعلق بتاريخ الأماكن التي شاهدوها.[٤١]

وربما كان صحيحاً أن التُّجار الذين يبيعون بضائعهم في الأسواق التجارية في الإسكندرية قد ضللوا المشترين الأثرياء بقصصٍ مبالغ فيها عن رحلاتهم الغريبة، والمخلوقات الخرافية التي شاهدوها أثناء هذه الرحلات.[٤٢] وربما ساعدت "ثرثرة البيع" هذه على ارتفاع أسعار السلع الشرقية، ولكن ذلك يعني أيضاً أن أشخاصاً مثل سترابون وجدوا صعوبةً في قبول أيِّ شهادةٍ من التُّجار على أنها شهادة موثوقة تماماً.[٤٣]

في عصر أوغسطس، كانت صورة الهند المعاصرة لدى أعضاء الحكومة الرومانية أوضح بكثيرٍ من صورتها لدى سترابون، أو المصادر القديمة الباقية. يذكرُ

سترابون أنَّ سفراء من مختلف الممالك الهندية كانوا يرسلون هيئات من الممثلين الدبلوماسيين إلى الإمبراطور أوغسطس، ولكن، على الرغم من أن سترابون كان لديه أصدقاء في أوساط النخبة الرومانية، إلا أنه لم يكن مطلعاً بوضوحٍ على تلك المعلومات، التي كان الإمبراطور يتبادلها مع هؤلاء الزوار الأجانب المرموقين.(٤٤)

وعلى الرغم من عيوبه، لا يزال كِتاب *(الجغرافيا)* لسترابون مصدراً قيِّماً للغاية للمعلومات عن التجارة الشرقية، ولا سيما في أوائل العصر الروماني. إنَّ النظرة العامة لهذا المؤلَّف، التي تشبه الاستطلاع حول الاتصالات والأوضاع عبر الحدود الشرقية أمرٌ لا غِنى عنه للدارسين، خاصة أن هذه المناطق النائية قلَّما تُذْكَرُ في مصادر أخرى باقية. كما أن إقرار سترابون لنظام الإمبريالية الرومانية يفرض عليه أيضاً التعليق على كيفية استفادة الإمبراطورية الرومانية من هذه المناطق الشرقية من خلال استيعاب التجارة، أو تحسين الأمن.• كُلُّ هذه التفاصيل تُقدِّمُ دليلاً قَيِّمَاً حول كيف قاد تشكيل الإمبراطورية الأغسطية إلى إحداث تغيير جوهري في العالم القديم. ومن هذا المنطلق، فإنَّ كتاب *(الجغرافيا)* لسترابون يحتل مكانةً مهمةً في أيِّ دراسةٍ شاملةٍ حول التِّجارة الشرقية.

خريطة بويتنجر

وثيقةٌ أخرى مهمةٌ، غالباً ما يُشار إليها باسم *جدول بويتنجر* (*Peutinger Table*)، وهي توضح التصورات الرومانية للعالم في شيءٍ يشبه الخريطة والجزء الأخير بها يمثل الهند. ويعتقد العلماء أن *جدول بويتنجر* في الأصل نسخة من خريطة رومانية زخرفية تعود إلى القرون الوسطى، التي يرجع تاريخها إلى حوالي العام ٣٠٠ ميلادية.

• موضوع إعجاب سترابون بالإمبراطورية الرومانية وتمجيد فتوحاتها العسكرية تمت معالجته بالتفصيل في دراسة العتيبي ٢٠٠٥م: Rome and Nabataea: Post-Colonialism and the Writing of History, Ph.D. thesis, Manchester University, Manchester.

وهي ذات صلة بدراسة التجارة الشرقية ؛ لأنها تعرض مواقع مهمة في الشرق البعيد، وتحدد طرق الاتصال البرية المهمة في تلك المناطق.

تم رسم هذه الخريطة وتلوينها على الرق، وتمثل العالم القديم كما لو كانت رسماً بيانياً خطياً طويلاً يقل طوله عن ثلث المتر، ولكن يمتد طولها إلى ما يقرب من سبعة أمتار.[٤٥] وفي تصميم الخريطة لم يكن هناك تقريباً أيُّ محاولةٍ لتمثيل الشكل الحقيقي للسواحل أو البلدان، ولكن كان يتم وضع علامة على المستوطنات البارزة على الوثيقة مع المعالم الجغرافية المختلفة. وترتبط المواقع الممثلة في العمل بخطوط ملونة، التي ربما تكون طرق سفرٍ وُضِعَتْ على أساس المسارات البرية التي كان يستخدمها الجيوش، والتجار، أو المسؤولون. وميزة أخرى رائعة للخريطة هي مظهر المعبد الأغسطي في جنوب الهند.[٤٦]

ومع هذا يوجد في *خريطة بويتنجر* أخطاء وتناقضات كثيرة جداً، لدرجة أنها لا تعدُّ وثيقةً فعَّالةً يمكن استخدامها للسفر البري، فعلى سبيل المثال، تظهر مدينة بومبي الإيطالية على الخريطة، على الرغم من تدميرها، جراء ثوران بركان فيزوف في عام ٧٩م. وفي المقابل، تظهر مدينة القسطنطينية بشكل بارز، على الرغم من أن المدينة لم يتم إنشاؤها حتى بداية القرن الرابع الميلادي. وقد صُمِّمَ هذا العمل، على ما يبدو، للعرض أمام الجمهور، ربما كشكلٍ من أشكال الدعاية للدولة.[٤٧] وتؤكد الخريطة بصرياً نطاق إنجازات الإمبراطورية الرومانية، وتُجسِّد اتساع حضارتها القديمة. وهذا يفسِّر لماذا تُصوِّرُ الخريطةُ المعبدَ الرومانيَّ في الهند، وهو تفصيلٌ من المؤكدِ أنَّ راسمي الخرائط قد وجدوه في بعض السجلات القديمة في وقتٍ سابق. ولذلك فمن المحتمل أنه قد تم تجميع الخريطة من قبل المثقفين الرومان باستخدام عدة مصادر قديمة ومسارات مختلفة لإنشاء عرضٍ تخطيطيٍّ كبير.

تعتبر *خريطة بوتينجر* لغزاً غريباً من المعلومات القديمة، وأي تفسير لهذه الوثيقة لا يزال صعباً، حيث تعتبر الخطة التخطيطية لهذا العمل مربكةً للمشاهد المعاصر، حيث يصعب تحديد المواقع الموضحة في الأراضي النائية بالمدن القديمة المعروفة. وعلى الرغم من إمكانية تعقب المسارات العامة على الخريطة مع بعض الثقة، إلا أنه في كثيرٍ من الأحيان لا تتضح أهمية هذه المسارات بسهولة. على سبيل المثال، ليس من الواضح مَنْ الذي كان يستخدم الطرق القديمة الموضَّحة في أجزاء العمل لتصوير الشرق البعيد. وما هي المعلومات الأصلية في هذه الاتصالات. ومع وجود هذه الملاحضات، فإن *خريطة بوتينجر* تعتبر مصدراً فريداً من نوعه، وهذه الوثيقة المهمة سيكون لها شأن عظيم في الدراسات المستقبلية للتجارة الشرقية.

إيسيدور ومحطات الفرثيين

محطات الفرثيين (*Parthian Stations*) من تأليف شخص يُدعَى إيسيدور، وهو نصٌّ مختصرٌ له أهمية كبيرة لدى الأكاديميين الذين يدرسون التجارة الشرقية. ويعطي هذا العمل دليلاً مختصراً للمواقع المؤدية نحو الشرق عبر مملكة الفرثيين، الذي اعتبره كثير من العلماء طريقاً مهماً في التجارة البرية.[٤٨] ولا يُعْرَفُ الكثيرُ عن إيسيدور، لكنه على مايبدو كان ينتمي إلى مجتمعٍ يونانيٍّ في مدينة خاراكس في بلاد ما بين النهرين، بالقرب من رأس الخليج العربي.[٤٩] والنصُّ الذي يشكل ما يسمى *بمحطات الفرثيين*، هو النصُّ الوحيد المتبقي من كُتَيِّبٍ باللغة اليونانية يصف الأوضاع في أراضي الفرثيين. ويتكون هذا الكُتَيِّبُ الذي وصل إلينا من ١٩ فقرةً قصيرةً، والكثير منها ليس أكثر من مجرد جُملٍ تذكر المسافات، وتوفِّر في بعض الأحيان حقائق وثيقة الصلة بمواقع معينة.

في *محطات الفرثيين*، يحدد إيسيدور الخطوط العريضة للطرق من زيوجما عند حدود سوريا الرومانية، نزولاً إلى نهر الفرات وعبر الهضبة الإيرانية إلى داخل حدود

الإدارة الفرثيية.[٥٠] ومن المثير للاهتمام، أنه لا توجد أي إشارة في هذا العمل تدل على التجارة، ولا أي مؤشر إلى أن الطريق الرئيسي المذكور عبر بارثيا من شأنه أن يؤدي إلى الهند أو ما بعدها، أو عبر أراضي آسيا الداخلية ليصل إلى الصين. ويسرد إيسيدور المراكز الحضرية التي تضم، على الأرجح، محطات القوافل، ولكن يمكن أن تكون هذه المواقع قد أدرجت أيضاً؛ لأنها بمثابة قواعد عسكرية، أو لأنها كانت نقاطاً مهمة على طرق المواصلات الرسمية للمسؤولين الفرثيين.

ويعتقد بعض العلماء أن إيسيدور ربما قام بتحديد مسار الحملة العسكرية عبر أراضي الفرثيين خدمةً للقادة الرومان.[٥١] وهذا أمر ممكن؛ لأنه في بداية جولته أدرج عبارة "من هذه النقطة تعبر القوات إلى الجانب الروماني". ويبدي إيسيدور أيضاً اهتماماً بالطابع السياسي والعسكري للمواقع على طول الطريق المذكور، كما ذكر في بعض الأحيان ما إذا كان هناك موقع معيَّنٌ محصَّنٌ أم لا، أو إذا كان يمكن اعتبار السكان المحليين بأنهم "يونانيون"، وبالتالي ضمناً، من الموالين للرومان.[٥٢]

ويمكن أن يشير تعليق بلني الأكبر إلى أن إيسيدور كان عميلاً للحكومة الرومانية، حيث كتب بلني ما يلي:

> كانت خاراكس مسقط رأس ديونيسيوس، وهو آخر كاتب تعامل مع جغرافية العالم. وقد أرسله الإمبراطور أغسطس إلى الشرق لكتابةِ كتاب كاملٍ عن هذه المنطقة. وقد حدث هذا قبل فترةٍ وجيزةٍ من سفر جايوس قيصر إلى أرمينيا لتولي القيادة ضد البارثيين والعرب.[٥٣]

يمكن أن يكون ديونيسيوس كَتَبَ تحت اسم إيسيدور، ولكن من الممكن أيضاً أن السلطات الرومانية كانت تستخدم عدداً من المخبرين اليونانين لجمع المعلومات الاستخباراتية حول طرق غزو محتملة عبر بارثيا. وبالتالي يمكن أن يكون عمل إيسيدور هو ما تبقى من وثيقة إستراتيجية تمت كتابتها بطلبٍ من الحكومة الإمبراطورية.[٥٤]

قد يرجع تاريخ محطات الفرثيين إلى عهد أغسطس، ولكن ربما استخدم إيسيدور مصادر سابقة لتأليف دراسته هذه. إن الإشارة في هذا العمل إلى وجود مدينة الكسندروبوليس على الحدود الشرقية لمملكة الفرثيين تنطوي على مفارقةٍ تاريخية، حيث ترى إحدى النظريات أن تقرير إيسيدور مشتقٌ بطريقةٍ أو بأخرى من وثيقةٍ رسميةٍ فرثية، أو ربما مسح أجراه الملك ميثريدتس الثاني في حوالي عام ١٠٠ قبل الميلاد.[٥٥] وعلى الرغم من كل هذا، وعلى الرغم من أن تاريخه والغرض منه كانا غامضين، يبقى نص *محطات الفرثيين* مهماً لفهم طرق السفر من خلال بلاد فارس القديمة، وبالتالي يستحق التنويه عنه عند تناول التجارة الشرقية بالدراسة.

بلني والتاريخ الطبيعي

يقدِّمُ العملُ الموسوعيُّ الموسومُ بـ(*التاريخ الطبيعي* *Natural History*) لبلني الأكبر، تفاصيلَ مهمةً فيما يتعلق باستخدام المنتجات الشرقية في مجتمع البحر الأبيض المتوسط، فضلاً عن المشاريع التجارية البعيدة التي يقوم بها الرعايا الرومان للحصول على هذه السلع الغريبة. ويعتبر كتاب (*التاريخ الطبيعي*) وثيقةً معقدةً بشكل ملحوظ. وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة تُصوِّرُ لنا عقلية النخبة الرومانية الحاكمة، إلا أنَّ المعلومات التي تحتويها هذه الوثيقة من الصعب في كثيرٍ من الأحيان تفسيرها أوتقييمها.

ولد بلني في شمال إيطاليا في حوالي ٢٣م، ولكنه أرسل في سن مبكرة إلى روما لتلقي العلم، حيث أُتيحت له فرصة مشاهدة الفعاليات الشعبية التي يشارك فيها أعضاء البلاط الإمبراطوري.[٥٦] وعند بلوغ سن الرشد خدم بلني في صفوف الجيش الروماني في ألمانيا، وشارك في عدد من الحملات العسكرية. ثم عُيِّنَ بعد ذلك نائباً في تاراكونينسيس هيسبانيا، حيث عمل في الفترة ما بين ٧٢ و٧٤ ميلادية.[٥٧] وكانت تاراكونينسيس أكبر قسم من إسبانيا الرومانية وفي منتصف القرن الأول الميلادي كانت

هذه المنطقة مُنتِجاً رئيسياً لاحتياطيات الذهب الجديدة في الإمبراطورية. وعلى الأرجح فقد صبَّ بلني اهتمامه الأكاديمي على التنقيب في المناجم وإنتاج سبائك الذهب خلال هذه الفترة.[٥٨]

تولى بلني منصب المدعي في محافظات أخرى قبل أن يعود إلى روما، حيث شغل منصب مستشار للإمبراطور فاسباسيانوس. وفي روما حضر بلني اجتماعات كان يستشير فيها فيسباسيان حكومته حول إدارة الدولة والأعمال التنفيذية للإمبراطورية.[٥٩] نشأ وتطور لدى بلني اهتمام أكاديمي بالمسائل البحرية. وفي وقت متأخر من حياته المهنية تولى قيادة الأسطول الروماني في ميزنوم في خليج نابولي. وبقي في هذا المنصب حتى وفاته الدرامية في عام ٧٩م عندما اختنق من الغازات البركانية بينما كان يحاول إنقاذ المدنيين الفارين من ثوران بركان فيزوف.[٦٠]

بالإضافة إلى مهامه الرسمية ترافع بلني عن بعض القضايا في المحاكم الرومانية، وكان كاتباً غزير الإنتاج حول مواضيع مختلفة. نشر بلني العديد من الأعمال، منها عمل تكتيكي عن مناورات سلاح الفرسان، مستمداً من تجربته في ألمانيا، وسيرة ذاتية لراعيه "بومبونيوس سيكوندوس"، وكذلك عشرين مجلداً عن الحروب بين روما وألمانيا.[٦١] ومع الأسف، فإنَّ العمل الوحيد المتبقى لبلني من بين هذه الأعمال جميعها هو *"التاريخ الطبيعي"*، الذي قام بجمعه خلال هذه الفترة عندما كان وكيل السلطة ومستشاراً للإمبراطور.[٦٢]

و*(التاريخ الطبيعي)* هو مجموعة انتقائية هائلة وغير عملية من المعارف، حيث يتألف من ٣٧ مجلداً ضخماً ويتعامل مع جوانب عديدة من العالم الطبيعي، وعلاقة الإنسان مع الطبيعة، وينقسم إلى العديد من الأقسام، التي تتناول مواضيع مثل الجغرافيا، والنباتات، والحيوانات، والأدوية، والمعادن.[٦٣] وعند مناقشة هذه المواضيع،

قام بلني بتجميع كتابات قديمة من مجموعة واسعة من المؤلفات اليونانية والرومانية. وبناءً على ذلك، يمكن أن تقرأ مقاطع كثيرة من دراسته بصفتها خلاصة وافية للكتابات الكلاسيكية بدلاً من إجراء تحقيق في الظروف المعاصرة.

إنَّ المعلومات التي تشكل *(التاريخ الطبيعي)* قد تم تجميعها بشكل مهلهل تحت العديد من المواضيع. وبقراءة الكِتاب يجد الباحث المعاصر "تفاصيل جنباً إلى جنب مع تفاصيل، وإردافٍ، وخصوصيةٍ وتعدديةٍ، وتناقضٍ مع الذات".[٦٤] وتزخر مناقشات بلني بالزخارف، والحكايات، والأوصاف الملونة. وقدَّم روايات عديدة عن العجائب، والغرائب، والمسوخ، وغيرها من العجائب الأخرى، وفي كثيرٍ من الأحيان مع قليلٍ من التعليق النقدي.[٦٥] وعندما يقوم بلني بتقديم وجهة نظره الشخصية نجدها غالباً ما تكون في شكل حِكَمٍ أو مواعظَ أو تعليقٍ مُسَلٍّ.[٦٦] وعندما كان بلني يكتب *(التاريخ الطبيعي)*، كانت الحكومة الرومانية تتلقى تفاصيل مهمة ومعاصرة حول الشرق البعيد من وكلاء الإمبراطورية والتُّجار والسفراء في الخارج.[٦٧] ولكن بلني كان يحجب هذه المعلومات؛ لأنها لا تتناسب مع النوع الذي اختاره، الذي يؤكد على الحاجة لفهم الكتابات الكلاسيكية التقليدية.

وعلى الرغم من أن كِتاب *(التاريخ الطبيعي) قد شكَّل تحدياً* لبعض العلماء المحدثين، فقد أوصى به البعض الآخر. لقد قضى بلني عمره في خدمة الإمبراطورية الرومانية في العديد من المحافظات وإدارة قواتها بالقرب من مركز الحكومة الإمبراطورية.[٦٨] وكان يقصد أن تكون دراسته ذات قيمة بالنسبة للطبقة الرومانية الحاكمة، وتم إهداء هذا العمل إلى تيتوس ابن فيسباسيان، الذي كان قائداً عسكرياً شهيراً ووريثاً لعرش الإمبراطورية.[٦٩] لقد جعلت محاولات بلني الرامية لإيجاد "معرفة" من *"التاريخ الطبيعي"* وثيقة على درجة كبيرة من الأهمية لفهم مصالح المجتمع

الروماني، والمواقف الثقافية لنخبته الحاكمة.[٧٠] وسوف يلعب *التاريخ الطبيعي* وما يحويه من تناقضات، بالتأكيد، دوراً مهماً في جميع الدراسات المستقبلية للتجارة الشرقية.

جغرافية كلاوديوس بطليموس

حوالي عام ١٣٩ ميلادية، أتم يوناني سكندري يُدعَى "كلوديوس بطليموس" دراسة جغرافية عن العالم، وركَّز "كلوديوس" على الكيفية التي يمكن بها استخدام المعلومات الرياضية، بما في ذلك المسافات والإحداثيات لعمل خرائط دقيقة.[٧١] وهذا العمل هو مجرد دراسة لرسم خرائط العالم، التي بقيت من العصور الكلاسيكية القديمة. ويكشف لنا هذا العمل عن كيفية إسهام التجارة بشكل كبير في زيادة المعرفة الرومانية بالشرق البعيد.

كان كلوديوس بطليموس يعيش في مدينة يُرى في تجمعاتها العامة الأمراء الهنود والتجار بانتظام. لكنه فضَّل التعامل مع النصوص الأكاديمية بدلاً من النظر في واقع العالم القديم من خلال التحقيق المباشر. تلقى "بطليموس" معلوماته من المصادر العلمية بدلاً من التجربة الشخصية. وقد تم أخذ معظم هذه المعلومات من دراسة أعدَّها شبه معاصر له اسمه "مارينوس الصوري". تمكَّن "مارينوس" من الحصول على تقارير تجارية مفصلة مشابهة *لـ(دليل الطواف حول البحر الأرتري)*، ولكنه وصف الجيل القادم من الاتصالات التجارية. وشمل هذا عملاً كتبه رجل أعمال يُدعَى "ألكسندروس"، الذي نجح في وصف حتى أكثر رحلات التجارة الرومانية بُعداً في مناطق الشرق البعيد.[٧٢] وباستخدام هذه المعلومات، كان بطليموس قادراً على سرد عشرات المستوطنات التجارية الجديدة، التي زاد بروزها في التعامل التجاري الروماني

مع الهند وما وراءها. وكان بطليموس يكشف عن مصادره أحياناً عندما يذكر السلع التجارية في كُتيِّبه عن الإحداثيات الشرقية.

لم يكن "بطليموس" مهتماً بالتقارير الوصفية للشعوب وتواريخ المناطق. وبناءً على ذلك، كان كتابه *"الجغرافيا"* في معظمه يحتوي على خلاصة وافية هائلة من البيانات في شكل قوائم طويلة من أسماء المواقع والإحداثيات. ومع ذلك، فإنَّ هذا العملَ تَضَمَّنَ أيضاً سلسلةً من المقالات التي تتناول الجوانب العلمية، ورسم الخرائط. وفي هذه الدراسات حدَّد بطليموس كيفية استخدام الأرقام بالنسبة لخطوط الطول والعرض ليوجد "انطباعات جغرافية" لمختلف مناطق العالم.

ومع ذلك فهناك مشاكل واضحة في بيانات بطليموس والنهج الذي استخدمه لإنشاء الخرائط في الشرق البعيد، فقد حدَّد "بطليموس" المراكز التجارية الشرقية على أنها "متاجر"، أو "قرى"، أو "مدن"، أو حتى "عواصم"، لكنه لم يشرح بشكلٍ كافٍ هذه المصطلحات. قام "بطليموس" بشكل ملحوظ أيضاً بإعادة هيكلة بعض بياناته لجعلها تتناسب مع النظريات الخاطئة حول شكل مساحة آسيا. على سبيل المثال، عرَّف "ألكسندروس"، ومؤلف *كتاب "دليل الطواف حول البحر الأرتيري"* أن الهند تظهر على شكل مثلث، وأن ساحلها يمتد من الشمال إلى الجنوب، لكن "بطليموس" لا يزال مقتنعاً بتقاليد الجغرافيا اليونانية، وقرر تجاهل هذا الشكل الذي يمثل شبه الجزيرة. ولذلك قام بإعادة هيكلة إحداثياته لبسط الساحل الجنوبي الآسيوي.

على الرغم من هذه العيوب، فلا تزال الخرائط التي يمكن بناؤها من بيانات "بطليموس" مثيرةً للإعجاب. ويشير عمله إلى أنه خلال هذه الحقبة، قد وصل التجار الرومان إلى ماليزيا وكانت السلطات القديمة على علمٍ بأن منطقة الشرق البعيد تحتل

أكثر بكثيرٍ من ثلثي الأرض المعروفة. ويكشف كتاب "بطليموس" أيضاً أن الرومان كانوا على عِلْمٍ بالأراضي الصينية، وأنها أكثر المناطق النائية في الشرق.

أطلال من مصر الرومانية

في العصور القديمة، كان أهم ميناءينِ رومانيينِ للتجارة الشرقية هما الموجودان في مدينتي برينيكي ومايوس هُرموس المصريتينِ، وتقعانِ على الساحل العلوي للبحر الأحمر. ولا تزال بقايا أطلال هاتينِ المدينتينِ واضحةً في الصحراء والمواقع التي تم حفرها أخيراً من قبل علماء الآثار، الذين اكتشفوا أدلةً جديدةً ومثيرةً للإعجاب تكشف عن سير العمل في مجال التجارة الشرقية.

وقد تم اكتشاف مجموعة من النصوص القديمة منقوشة على شظايا الفخار في برينيكي. وقد تم تحديد هذه القطع الفخارية، أو *الأوستراكا* (*ostraca*) كسجلات عامة تمت إزالتها من بنايات جمارك مجاور، في وقت ما قبل عام ٧٠م، ودفنت في التربة الرملية الجافة في حفرة قديمة.[٧٣] وكانت تلك السجلات نماذج فخارية بمثابة تصاريح رسمية، صدرت على الأرجح في مدينة كوبتوس النيلية بعد أن دفعت رسوم تصدير البضائع المرسلة عبر الصحراء المصرية لموانئ البحر الأحمر. وكان هذا المرور بمثابة إيصالات ضريبية تُعْرَضُ على السلطات في برينيكي؛ للتأكد من أن البضاعة الجاري تحميلها على متن السفينة قد دفعت المستحقات المطلوبة في كوبتوس.[٧٤] وقدَّمت هذه السجلات الرائعة تفاصيلَ مهمةً عن عمليات الشحن القديمة في الميناء، وهي مهمة للغاية للمناقشات المستقبلية للتجارة الشرقية.

لقد كُتِبَتِ النصوص المسجلة في *أوستراكا* برينيكي بصيغةٍ موحدة، وهي بمثابة المراسلات التي جرت بين المسؤولين في الدولة. وفي مثال نموذجي كتب ضابط جمارك اسمه "روباوس" ما يلي:

من روباوس إلى القائمين على بوابة الجمارك، تحياتي. اسمحوا لزينوسيريس نجل ليون بالمرور مع ثماني قينينات من النبيذ لتحميلها.[٧٥]

تُركِزُ بقية النصوص التي وصلت إلينا على شحنات الخمر والبضائع المتنوعة الأخرى، ولكنها لا تُوثِّقُ بعضاً من صادرات الرومان الرئيسية المسجلة في كتاب "دليل الطواف حول البحر الأرتيري". وكان هذا على الأرجح بسبب تكليف مسؤولين بعينهم من الجمارك بمراقبة شحنات معينة. وبالتالي، فإن الأوستراكا الباقية، التي تم العثور عليها تُعبِّرُ فقط عن قسمٍ واحدٍ في الميناء، وربما كان العديد من موظفي الجمارك الآخرين في برينيكي مسؤولين هنالك عن السلع الأخرى مثل الذهب، والنقود المعدنية، والأقمشة، والمعادن الأساسية، والأواني الزجاجية.[٧٦] وكان يمكن تقسيم الحمولة إلى شحنات أصغر حجماً؛ لتسهيل عملية النقل من وإلى السفن التجارية. وبالتالي، لا يمكن أن تستخدم *أوستراكا* برينيكي للكشف عن حجم السفن الرومانية، أو قدرات حمولتها.[٧٧]

قدمت مجموعة من *الأوستراكا* تسمى *أرشيف نيكانور* (Nicanor Archive) المزيد من المعلومات القيمة عن عمليات نقل القوافل التي وردت إلى موانئ البحر الأحمر خلال الحقبة الرومانية. وتم العثور على *أرشيف نيكانور* في كوبتوس، ويتألف من إيصالات النقل من شركة عائلية صغيرة كانت نشطة من عام ٦ ميلادية إلى عام ٦٢ ميلادية.[٧٨] وقد عقدت هذه الشركة عقداً مهماً لإيصال الإمدادات الغذائية الشهرية إلى الحاميات الرومانية المتمركزة في الصحراء. وكان على رأس هذه الأعمال التجارية شخص إغريقي مصري يسمى نيكانور، وكان يملك قافلةً صغيرةً بها ما لا يقل عن ٣٦ من الإبل.[٧٩]

ويبدو أنَّ رجال الأعمال الرومان قد استأجروا نيكانور لنقل شحناتهم عبر الصحراء، وعندما تصل هذه البضائع بسلام، يقوم وكلاؤها في الموانئ بإصدار إيصال

أوستراكا لتوثيق عملية التسليم، ثم يعود نيكانور، أو أحد أعضاء عائلته الكبيرة الذي قام بالتسليم، إلى كوبتوس ومعه الإيصال. ويمكن استخدام هذا الإيصال بعد ذلك للتحقق من أن عملية التسليم قد تمت تماماً كما اتفق عليها. وهناك ٨٨ شقفة *أوستراكا* في *أرشيف نيكانور* تدل على الشخص الذي قام بنقل البضائع من عائلة نيكانور وكمية ونوع البضائع المنقولة، وجهة التسليم، واسم الشخص الذي حصل على الشحنة، وتاريخ إبرام هذه الصفقات.[٨٠] وبالتالي يوفر *أرشيف نيكانور* معلومات قيمة حول هويات ونشاطات رجال الأعمال الرومان الذين كانوا يعملون في موانئ البحر الأحمر.

وهناك نقش على حجرٍ كبيرٍ، يُعرف باسم تعريفة كوبتوس (*Coptos Tariff*) وهو يوفّر معلومات مهمة عن المسافرين الذين كانوا يعبرون صحراء مصر الشرقية في العصر الروماني. والنصُّ الذي يعود تاريخه إلى حوالي عام ٩٠م، قد تم وضعه في موقعٍ عامٍ بارزٍ في كوبتوس ليذكر المبالغ التي يتعيَّن دفعها من قبل المسافرين قبل مغادرة المدينة لموانئ البحر الأحمر. وفرضت الضرائب على الناس وفقاً لمهنهم. ويسجل النقش أيضاً الرسوم التي يتعين دفعها على الدواب، وغيرها من وسائل النقل غير العادية، وكذلك على تجهيزات الجنازة.[٨١] ولما كان هذا المعبر الصحراوي هو الطريق الرئيسي المؤدي إلى موانئ البحر الأحمر، يدل هذا النص على العديد من المهن المشاركة في رحلات التجارة الرومانية في الشرق البعيد.

تأتي أدلة مهمة أخرى لهذه الرحلات التجارية من الصحراء نفسها، حيث يستريح المسافرون من حينٍ لآخر على طول طرق القوافل في الملاجئ الصخرية الصغيرة التي تقدم ملجأً مؤقتاً من الشمس الحارقة، أو الرياح الرملية. وفي كثيرٍ من نقاط التوقف هذه حفر المسافرون أسماءهم في الصخور، تاركين بذلك تسجيلاً دائماً لرحلاتهم عبر الصحراء، حيث تمد هذه التسجيلات المؤرخين بمعلوماتٍ مثيرةٍ عن

الأشخاص الذين ارتحلوا إلى موانئ البحر الأحمر، ثم سافروا بعد ذلك إلى وجهات أخرى مثل الهند.[٨٢]

استعادت وثائق البرديات المصرية في العصر الحديث مكانتها بحيث أصبحت مصدراً مهماً آخر للمعلومات عن التجارة الشرقية، وخاصة عندما تسجل هذه البرديات الترتيبات التجارية. وأحد أكثر الوثائق إثارةً للاهتمام والمتاحة في هذه الدراسة هو عقد قرض مجزأ يُسمَّى (*P. Vindob. G 40822*) ويُعرف أيضاً باسم *بردية موزيريس* (*Muziris Papyrus*)؛ لأنها تسجل تفاصيل حول شحنة البضائع العائدة من موزيريس على متن سفينة تجارية رومانية تدعى هيرمابوللون.[٨٣] ويسرد النص الترتيبات اللازمة لنقل هذه البضائع الهندية عبر الصحراء الشرقية والشمال على طول نهر النيل إلى المستودعات في الإسكندرية. والنص مهم؛ لأنه يُقدِّم تفاصيل مهمة حول قيم البضائع الشرقية المشاركة في هذه التجارة واسعة النطاق.

تضيف الاكتشافات الأثرية الجديدة في مصر باستمرارٍ الكثيرَ من المعلومات إلى أدلة الدراسة الخاصة بالتجارة الشرقية. وفي المستقبل، ستتيح هذه المعلومات نظرةً أشمل إلى التنظيمات التجارية الخارجية لروما ومدى حجمها. وسوف يأتي الوقت الذي ستطالب فيه جميع الدراسات التفصيلية للإمبراطورية الرومانية واقتصادها القديم بأخذ هذا الدليل المهم في الاعتبار.

نقوش القوافل من تدمر

لا تزال أنقاضٌ واسعةٌ من تدمر القديمة، بما في ذلك بقايا المعابد العظيمة والمباني الإدارية الكبيرة، مرئيةً في الصحراء السورية. وفي ركام الحجارة القديمة، تدل مئات الأعمدة الكلاسيكية المجزأة على أماكن الطرق الواسعة، التي كانت تمر في وسط المدينة.[٨٤] وفي العصور القديمة، أقام كبار الشخصيات والتجار في تدمر تماثيل، أو

غيرها من العروض النحتية إحياءً لذكرى الأفراد الذين خدموا المدينة، أو سكانها. وَوُضِعَتْ هذه الآثار بين المباني الحجرية في المدينة، وأُقيمت في مواقع بارزة على طول الطرق العامة، وساحات الأسواق. وقد تم تدمير أو تشويه عددٍ كبيرٍ من هذه التماثيل في قرونٍ لاحقة ، ولكنَّ النقوشَ المكتوبةَ لم تتعرضْ لأذى.[٨٥]

تحيي العديد من نقوش تدمر ذكرى بعض سكان تدمر الذين ساعدوا القوافل من المدينة في مشاريعهم التجارية في شرق بلاد ما بين النهرين. وبناءً على ذلك، فإنها توفِّر لنا معلومات مهمة عن تنظيم قوافل المشاريع، ووجهات هذه البعثات التجارية، وعناوين الأشخاص الذين مكَّنوا، أو ساعدوا البعثات، وحتى الحوادث مثل قطع الطرق، التي أثَّرت في التجار.[٨٦] وقد كتبت النقوش التذكارية في تدمر بشكلٍ من أشكال الآرامية عُرِفَتْ به هذه المدينة، ولكن في كثيرٍ من الأحيان تم تكرار هذه الإهداءات باليونانية. ويبتدئ تاريخ النقوش التي تُوثِّقُ قوافلَ المشاريع من عام ١٩ إلى عام ٢٦٠ ميلادية، وهناك تركيزٌ واضحٌ للنصوص من القرن الثاني.[٨٧] وتشيرُ الإهداءات إلى وتيرة التبادل التجاري، ولكنها قد تعكس أيضاً شعبية أزياء معينة في المدينة.

تم العثور على نقوش محفورة في أطلال مدينة تدمر القديمة، حيث توفِّر أدلة بصرية مهمة لمظهر سكان المدينة. وتُظهر هذه التماثيل الشخصيات والتجار والجمال العربية، وحتى السفن البحرية التي شغلها التدمريون في الخليج العربي. وكثير من هذه المنحوتات هي من الصروح الجنائزية، وأنقاض هياكل مقابر تشبه الأبراج، التي توجد على مشارف المدينة القديمة. كما تم العثور على نقش لقانون ضريبي من تدمر، وهذا نصٌّ مهمٌ، يعود تاريخه إلى عام ١٣٧ الميلادي، ويكشف لنا كيف كان يتم فرض الرسوم الجمركية على البضائع التي تدخل أسواق المدن.[٨٨] وتكشف هذه الأدلة أيضاً

كيف يمكن اعتبار التجارة البعيدة ضمن السياق الأوسع للإنتاج الإقليمي والتجارة المحلية.

أدلة على العملات الرومانية من الهند

كجزء من التعامل التجاري مع الشرق البعيد، قام التجار الرومان بتصدير كميات كبيرة من العملات الذهبية والفضية إلى الهند القديمة. وفي الآونة الأخيرة تم العثور على كميات كبيرة من القطع النقدية الرومانية في الهند، ويمكن استخدام هذه الكنوز للدلالة على تنمية التجارة الشرقية، وقياس تأثيرها المحتمل في النظام المالي في الإمبراطورية الرومانية.

تم اكتشاف ما يقرب من ٨٠ قطعة نقدية رومانية في الهند. وتمت معظم هذه الاكتشافات في المناطق الجنوبية من شبه القارة. وتراوحت الحالات الموثقة من الاكتشافات ما بين فردية إلى كمياتٍ كبيرةٍ تحتوي على مئات القطع النقدية. وتتكون كل المكتشفات الرومانية من الذهب أو الفضة عالية القيمة، ومن النادر العثور على الكنوز التي تمتزج فيها هذه المعادن الثمينة معاً.[٨٩]

تم اكتشاف الكثير من الكنوز الرومانية التي تم توثيقها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين عندما كانت الهند جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. وخلال هذه الحقبة، عمل الآثاريون المهتمون في كثيرٍ من الأحيان مع المسؤولين الإنجليز في محاولةٍ لاستعادة الكنوز الرومانية المكتشفة أخيراً. وفي معظم الحالات، تمكَّنوا من الحصول على جزءٍ صغيرٍ من القطع النقدية، ولكن في كثيرٍ من الحالات تمكَّنوا من جمع معلومات مهمة حول الاكتشافات، بما في ذلك تفاصيل مفيدة حول حالة الاكتشافات وحجمها. ويُقدِّرُ العلماء أنه من واقع الكنوز الرومانية، التي تم استردادها، لا يزال حوالي ٥٤٠٠ ديناري، و٨٠٠ أوراي، موجودة في مجموعات حديثة مختلفة.[٩٠] ومع

ذلك، فقد اختفى عددٌ أكبر بكثيرٍ من هذه القطع النقدية من السجلات، وأصبح غيرَ متاحٍ للدراسة.

باتت كمية العملة الرومانية المكتشفة في الهند لغزاً معقداً للباحثين المعاصرين، كما تعتبر تحدياً لغير المتخصصين. وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات، فإنَّ وجود هذه العملة يعتبر أمراً في غاية الأهمية لأية دراسة حديثة تسعى إلى فهم أهمية تجارة روما مع الشرق، وفهم تطوُّرِها.

نقوش بوذية من الهند القديمة

عثر التجار الرومان، الذين زاروا الهند، على ممالك كثيفة السكان، ذات العديد من المهن الحرفية الراسخة والثقافة الحضرية.[٩١] وتحيي نقوش الهند القديمة ذكرى الهبات المقدمة للأديرة البوذية من قبل الحرفيين والتجار الذين كانوا على صلة مع النقابات التجارية المختلفة. وتُوفِّر هذه النصوص معلومات مهمة عن الاقتصاد في الهند القديمة. كما تعتبر تسجيلاً لمشاركة الرعايا الرومان في شبكات التجارة الشرقية.

تأتي بعض النقوش الهندية القديمة الأكثر إثارةً للاهتمام من التضاريس الجبلية للديكان الغربي، ففي هذه المنطقة ازدهرت الأديرة البوذية في الممرات الجبلية التي يستخدمها التجار في الرحلات الداخلية إلى المدن الكبرى في وسط الهند. وتلقت الأوساط البوذية رعاية التجار الزائرين واستفادت من التضاريس المحلية للبدء في نحت أسطح الصخور المحيطة بها إلى أشكال معقدة. وتم حفر أنظمة الكهوف الطبيعية أيضاً لإنشاء المرافق الدينية المعقدة وأعمدتها المزخرفة وصوامع التأمل.[٩٢] وعلى غرار هذه الهياكل الصخرية بنيت المباني الخشبية القائمة بذاتها، التي كانت موجودة في الأديرة البوذية في الهند القديمة. وبالتالي تقدم مواقع الديكان لنا لمحةً فريدةً من نوعها عن

الماضي البعيد وتوفّر لنا النقوش التي توجد في هذا المواقع سجلاً رائعاً من الممارسات القديمة.

وتسجل لنا هذه النقوش المكتوبة، بشكل شعبي من السنسكريتية يعرف باسم براكريت أيضاً، الأعمال التعبدية. وهناك عدد قليل من هذه النصوص تذكر الأموال التي تعطى للأديرة من قبل المتحوّلين الجدد للبوذية، الذين يبدو أنهم كانوا من تجار الإمبراطورية الرومانية.[٩٣] وهذه الأدلة رائعة وستصبح بالتأكيد مهمة في الدراسات المستقبلية للتجارة الرومانية البعيدة.

أدب التاميل القديم

يحتوي الأدب التاميلي القديم على قصائد ملحمية سردية يرجع تاريخها إلى القرون الأولى للمسيحية. وتصف هذه الملاحم الوقت الذي كان يزور فيه الرعايا الرومان أراضي التاميل لمناقشة المشاريع التجارية البعيدة، التي تقدِّم دليلاً فريداً حول أنشطة الرومان في الهند القديمة.[٩٤] ويقدِّم هذا الأدب رؤية مهمة حول مجتمع التاميل في وقت مبكر، ولا يمكن تجاهله من قبل أي دراسة جادة عن العالم القديم.

لقد نظر التاميل للرومان على أنهم أجانب غريبون، وأطلقوا عليهم اسم (*يافانا*). وقد اشتق هذا الاسم من المصطلح القديم (*أيوني*)، الذي يشير أصلاً إلى اليونانيين القاطنين في سواحل آسيا الصغرى، الذين أطلق عليهم الفرس اسم (*ياونا*).[٩٥] وبمرور الوقت وصل الاسم إلى الهند، وأصبح *يافانا*، وتم إطلاقه على أي شخص كان يونانياً، أو كانت له هوية هيلينية قديمة تبدو عليه. وبالتالي، عندما واجه التاميل لأول مرة التجار من الإمبراطورية الرومانية، ووجدوهم يتحدوث اليونانية بشكل أساسي، وصفوهم بأنهم "*يافانا*".

تظهر معظم مراجع التاميل المتعلقة *باليافانا* في مجموعة من الشعر السردي المعروف باسم أدب *سانجام*، الذي يتناول بعض الموضوعات البطولية مثل الحب والحرب.[٩٦] وكان أدب التاميل في الأصل شعراً شفهياً. ولهذا فقد تم تناقل هذه الأناشيد الرعوية من خلال الرواية الشفهية حتى أواخر العصور القديمة عندما تمت كتابتها. وبحلول القرن السابع الميلادي تم جمعها في مجموعات كبيرة بقيت حتى العصر الحديث.[٩٧]

كانت أبيات الشعر عند التاميل تنظم لتمجيد الرعاة، ومن هنا لم تكن تهدف إلى أن تكون سجلاً تاريخياً. ونتيجة لذلك، فإن وصف مجتمع التاميل الوارد في هذه الأشعار كان في كثيرٍ من الأحيان عرضياً مقارنة بالسرد الواسع. على الرغم من أن الأماكن والأحداث الواردة في هذا الأدب كان يتم سردها بطريقة وصفية للغاية، تم نقل بعض المعلومات بعبارات وتعابير نمطية. ولا تحتوي كتابات التاميل على أي ذكر، أو مناقشة عن روما كدولة سياسية. وبدلاً من ذلك يظهر أهل *اليافانا* باعتبارهم الأساس، وتم ذكرهم في فقرات وصفية قليلة. ولكن المعلومات التي قدمتها هذه الكتابات لافتة للنظر، حيث غالباً ما يظهر الرومان في صورة مرتزقة وحرفيين وتجار زائرين قادمين على متن سفن غير عادية.

علم الآثار فيما وراء الإمبراطورية

تم الكثير من الاكتشافات الأثرية الجديدة والمهمة في الشرق البعيد، التي من شأنها أن تطوِّر الفهم الحالي للتجارة الرومانية، حيث تم أخيراً اكتشاف مواقع أثرية مهمة في الهند، وهي بحاجة الآن للدراسة. كما تم تحديد حطام ثلاث سفن رومانية في قاع المحيط أسفل الممرات البحرية القديمة التي عبرت المحيط الهندي.

ويعدُّ أهم هذه الاكتشافات الحديثة العثور أخيراً على حطام سفينة رومانية كبيرة قُبالة ساحل القصير على البحر الأحمر في مصر. حيث غرقت هذه السفينة التجارية بالقرب من أنقاض الميناء الروماني القديم في مايوس هورموس، ربما في عهد أغسطس. ويشير اكتشاف قوارير نبيذ كامبانيا في قاع البحر إلى أن سفينة الشحن عندما غرقت في ظروف غير معروفة كانت تحمل البضائع الإيطالية في رحلة إلى الخارج.[٩٨] كما وجد حطام آخر لسفينة رومانية في أسفل الجانب الأفريقي للبحر الأحمر بالقرب من ريف الشاب الرومي على ساحل السودان. ولا يُعرف سوى القليل عن هذه السفينة، لكنها كانت تحمل شحنة من قوارير نبيذ كوا، مما يشير إلى رحلة خارجية أخرى، انتهت بطريقة ماسأوية.[٩٩] وكشف حطام كلتا السفينتينِ عن معلوماتٍ كثيرةٍ حول كميات البضائع طويلة الأجل وأنواعها، التي اختارها الرومان لتصدر إلى الشرق البعيد.

وقد تم التحقيق في مزيدٍ من حطام سفن رومانية من قبل الغواصين قبالة سواحل بيت دواركا في شمال غرب الهند. ويرجع الحطام إلى سفينة شحن كبيرة وأجزاء من جسمها تمت المحافظة عليه في رواسب قاع البحر، حيث غرقت السفينة على بُعد ٥٠٠٠ كم من الأراضي الرومانية. وقد كانت التحقيقات محدودة، ولكن الشحنات كانت تحتوي على حاويات للقوارير فضلاً عن سبائك رصاص مخصصة للسوق الهندية.[١٠٠] وسوف يُقدِّمُ هذا الحطام معلومات مهمة حول التعديلات التي أدخلت على سفن الشحن الرومانية التي أبحرت عبر هذه المحيطات البعيدة. ويمكنها أيضاً أن تقدِّم تفاصيل جديدة وقيمة عن أفراد الطاقم والمعدات على متن السفن الرومانية في مثل هذه الرحلات الخطرة.

وكان لميناء موزيريس التجاري عند التاميل مكانة مهمة في التجارة الرومانية مع الهند، وقد تمكن أخيراً فريق من علماء الآثار من التعرُّف على موقع يعتقدون أنه قد يكون المدينة القديمة. وقام بهذا الاكتشاف عالم آثار جغرافية اسمه "ك. شاجان"، باستخدام صور الأقمار الصناعية لتتبع مجرى نهر بريار القديم. ثم تتبع هذا الطريق المنسي سيراً على الأقدام، شاقًّا طريقه عبر المياه الراكدة والحشائش، حتى عثر على بقايا مستوطنة واسعة ومهجورة لفترة طويلة تطابق الكتابات الأدبية عن موزيريس القديمة. وقام فريق من الباحثين الدوليين، بما في ذلك عالمة آثار ضليعة اسمها "روبرتا تومبر"، بفحص هذا الموقع القديم. وقد عثروا بالفعل على مكتشفات رومانية مهمة، بما في ذلك أجزاء من قوارير شحنات نبيذ متوسطية.[١٠١]

صوَّر لنا أدب التاميل في بدايته كيف بنى التجار الرومان مساكن كبيرة في ميناء بوهار على الساحل الجنوبي الشرقي للهند. ومع ذلك وصفت هذه المصادر أيضاً كيف غمرت المدينة القديمة تحت البحر جراء مد وجزر وفيضانات قوية.[١٠٢] وقد وجد الغواصون المحدثون الذين يعملون قبالة ساحل كورومانديل أنقاض بوهار القديمة الغارقة في قاع البحر، وتؤكد هذه الاكتشافات أن بعض الأحداث الكارثية في الماضي البعيد كانت قد طغت على المدينة.[١٠٣] وسوف يُقدِّمُ هذا الموقع الفريد تحديات كبيرة لعلماء الآثار البحرية في المستقبل، ولكن هذه النتائج قد تقدم رؤى أخرى مهمة في العلاقات التجارية في العالم القديم.

رسائل سغدية

خلال القرون القليلة الميلادية الأولى، كان هناك شعب في آسيا الداخلية يُدعَى "سغدان" قام بتطوير وجوده التجاري في ممالك تاريم في آسيا الوسطى، وأنشأ العديد من المجتمعات التجارية في الصين القديمة. نظَّم تجار سغدية قوافل لجلب البضائع الصينية

إلى وطنهم في مدينة سمرقند، ورتبوا المشاريع التجارية لإرسال المنتجات من آسيا الداخلية شرقاً إلى الأسواق في الصين. وفي عام ١٩٠٧م، اكتشف المستكشف البريطاني الشهير أوريل شتاين مجموعة صغيرة من الرسائل السغدية في أطلال برج مراقبة كان موجوداً على الحدود الصينية القديمة قرب دونهوانج.[١٠٤]

كُتِبَتِ الرسائلُ السغدية الخمس بنصٍّ إيرانيٍّ قديمٍ ومعقدٍ تصعب ترجمته. وكان بعض هذه الرسائل مراسلات شخصية، وبعضها الآخر يتعلق أساساً بالمسائل التجارية. وكانت الرسائل هذه توجه إما لقادة المجتمع في سمرقند، أو سغدية المقيمين في ممالك تريم على طرق القوافل إلى وطنهم. وتذكر الرسائل السغدية الأوضاع في الصين بعد سلسلة من الغزوات المدمرة من قبل الغزاة من فرسان السهول الآسيوية، حيث كان الغزاة من كيونغنو، ويرجع تاريخ هذه التفاصيل إلى حوالي عام ٣١٣ ميلادية.[١٠٥] وقد حدث شيءٌ ما لتاجرٍ سغديٍّ أُنيطت به مسؤولية إيصال هذه الرسائل. وهو إما أنْ يكون قد خبأها في برجٍ ما، أو ربما قرر جندي على الحدود الصينية مصادرتها، خوفاً من احتوائها على معلومات قد تكون ذات قيمة إستراتيجية لأعدائهم من الكيونغنو.

تقدم *الرسائل السغدية* رؤى مهمة عن أنشطة واهتمامات تجار القوافل القديمة على طرق الحرير من آسيا الداخلية. وهي تبين كيف وصلت السلع الصينية إلى الأراضي الرومانية، وهذا دليل يجب أن يتم تضمينه في أي دراسة شاملة للتجارة الشرقية.

سجلات من الصين القديمة

في أواخر القرن الأول الميلادي، بدأت إمبراطورية الهان سلسلةً كبيرةً من الحملات العسكرية لاستعادة السيطرة على ممالك تاريم من آسيا الوسطى، حيث

أرسلت في سبيل ذلك جنرالات نحو الغرب لإكمال المهمة، وجمع معلومات مهمة حول البلدان في الغرب البعيد. وقد أرسلت هذه التقارير إلى بلاط الإمبراطور الصيني لإدخالها في السجلات الرسمية. كما تم تسجيل بعض شهادات السفراء الزائرين، حيث عرفت هذه المصادر الحكومة الصينية بأن هناك قوة جديدة برزت في الغرب البعيد، وهي مساوية لحجم إمبراطورية الهان وأهميتها. أطلق وكلاء الهان في آسيا الوسطى على هذا المكان اسم (*دا تشين*)، وتعنى "الصين العظمى". وتشير تفاصيل من كتاباتهم إلى أن هذه "الصين الأخرى" يجب أن تكون الإمبراطورية الرومانية.[١٠٦]

لم تصل إلينا سجلات البلاط الملكي من الصين القديمة في شكلها الأصلي، ولكن تم الاحتفاظ بها بدقةٍ في نصوصٍ في وقتٍ لاحق.[١٠٧] وقد استفاد العلماء الصينيون بشدةٍ في العصور القديمة المتأخرة من سجلات الهان، وقاموا بتجميع تواريخ مفصلة عن ماضيهم. ويأتي أفضل دليل على *دا تشين* من عمل في القرن الخامس بعنوان "هوى هانشو"، ويُعرف أيضاً باسم *تواريخ الهان اللاحقة*. ويتضمن هذا العمل فصلاً يُسمَّى "المناطق الغربية"، التي تم جمعها من سجلات الحكومة، وتقارير من الجنرالات الكبار الذين اشتركوا في حملات في آسيا الوسطى. وقد تم تقديم هذه الكتابات المترابطة لإمبراطور الهان حوالي عام ١٢٥ ميلادية.

كما توجد أيضاً بعض السجلات من الممالك الصينية التي تلت حكم أسرة الهان في ٢٢٠م. وهناك عمل مهم وخاصة من هذا العصر هو "وايلو"، أو سرد موجز لأسرة "وي"، الذي كتبه باحث صيني معاصر يُدعَى "يو هوان". وقد نحا فصلٌ من هذا العمل تحت مسمى "شعوب من الغرب" من الضياع، حيث تم نقله بأمانةٍ ودقةٍ في بعض الكتابات الصينية اللاحقة. يعتبر هذا الفصل "وايلو" مهماً؛ لأنه جاء بمعلومات جديدة عن الإمبراطورية الرومانية، كما أنه يلقي الضوء على الطرق البرية المؤدية من الصين

إلى الغرب البعيد. كما أن بعض الإشارات الواردة في هذا العمل عن بلاد ما بين النهرين توحي بأن هذا العمل قد تم تأليفه بناءً على مجموعة تقارير جمُعت بين ١١٦ و١٦٥ ميلادية.[١٠٨]

وقدَّمت السجلات الصينية، بشكلٍ فريدٍ، معلوماتٍ مهمةً عن الأحوال القديمة والسياسة في آسيا الوسطى. وتلقي هذه السجلات أيضاً الضوء على أنواع السلع الرومانية التي وصلت إلى الشرق الأقصى من خلال طرق التجارة البرية والرحلات البعيدة عبر المحيط الهندي. وتتحدث بعض هذه الكتابات الصينية عن وصول عددٍ من الزوار الغرباء إلى الصين، الذين كانوا ربما من رعايا الإمبراطورية الرومانية.

تعتبر السجلات الصينية القديمة مقنعةً وذات مصداقية. ومن المدهش أن تقرأ كيف كانت تنظر حضارة قديمة أخرى متقدمة سياسياً إلى الإمبراطورية الرومانية. ونظراً لأهميتها، لا بد من دراسة الكتابات الصينية والاستفادة منها في أي مناقشات جادة عن التجارة الرومانية. وبالتأكيد سيكون لهذه المصادر مكان كبير في الدراسات المستقبلية للاقتصاد في العالم القديم.

الاستنتاجات

على أيِّ مؤرخ يبحث في التجارة الشرقية أن يأخذ في عين الاعتبار مجموعةً واسعةً من المصادر والأدلة المتنوعة من مختلف الحضارات القديمة. وهناك أيضاً أدلة أثرية يجب أخذها في الاعتبار، بما في ذلك أدلة العملة من الكنوز الهندية التي عثر عليها أخيراً. وكل هذه المصادر والتفاصيل الواردة بها تضيف المزيد من التحديات التفسيرية لهذه الدراسة. وكل هذا يجعل أي دراسة للتجارة الشرقية مهمة معقدة للغاية.

بالنظر إلى المصادر الكلاسيكية، من المهم أن ندرك كيف يؤثر نوع المصدر الأدبي ووجهة نظر مؤلفه على طريقة تسجيل وتقديم المعلومات القديمة. وينبغي أيضاً

أن نأخذ في عين الاعتبار الأدلة المفصلة على التجارة الرومانية الموجودة في العديد من المصادر المكتوبة من الثقافات القديمة الأخرى ولكن بحذر مناسب. ويمكن مناقشة الشكوك والمخاوف بشأن المصادر الباقية والتعبير عنها في مناقشات لا تنتهي، ولكن في كثيرٍ من الحالات تكون الطريقة الأكثر مصداقية لتحديد مصداقية أي مصدر قديم هي مقارنة المعلومات التي يوردها هذا المصدر مع الأدلة التي قدمتها نصوص أخرى، أو البقايا الأثرية.

من وجهةِ نظري، لا يمكنُ القيامُ بدراسةٍ شاملةٍ للتجارة الشرقية، إلا في إطار الدراسة التاريخية، التي تنطوي على الأدلة الأثرية من جميع المصادر المتاحة. وسيساعد أيضاً المزيدُ من الفهم لكيفية تشغيل التجارة الشرقية، استناداً إلى سياقات أوسع من الأدلة، المؤرخينَ على تقييم مدى مصداقية أيِّ مصدرٍ يحتوي على تفاصيل قد تكون "مشكوكاً فيها" في البداية. وجميع المصادر المذكورة أعلاه تم تجميعها مع بعضها بعضاً لإعطاء الباحث لمحة معقدة ورائعة من التعاون بين العديد من الثقافات القديمة.